بدايات قصص الأطفال في العراق

لن يجد الباحث عناءً كبيراً حين يطلق حكماً قاطعاً في بلورة بدايات فن القصة المكتوبة للطفل في مصر ويعطي ريادتها للاستاذ ( كامل كيلاني ) ، ( ويعده الأب الشرعي لقصة الأطفال النثرية باللغة العربية )( ) وكان حافزه في ذلك الفرق الكبير بين القصص المترجم للأطفال من الأدب الغربي ، وبين القصص العربي الموجه لهم آنذاك .

حيث كتب أول قصة للأطفال في عام (1927) بعنوان ( السندباد البحري ) ( ) ، وبقي يكتب حتى وفاته في عام (1959) ( ) . كما لا يتردد الباحث أيضاً ، في أن يعطي الريادة الأخرى للاستاذ ( محمد سعيد العريان ) إذ كانت قصصه تزرع القيم الاجتماعية في صفوف الأطفال من خلال صياغتها الجديدة وعباراتها المستقيمة واسلوبها المشوق ، ولن يجهد الباحث نفسه للكشف عن جهود ريادية أخرى للكاتب ( محمد عطية الابراشي ) حيث أثرى مكتبة الطفل العربي بقصصه الجميلة وراعى ميولهم ورغباتهم وتفكيرهم وخيالهم . كما لا يختلف إثنان في أن ( أحمد شوقي ) هو رائد القصة الشعرية في مصر( ) .

ولكن هذا الحال لا ينطبق على بدايات القصة في العراق ونشأتها ومنح ريادتها لاسماء ادبية لامعة كما هو الحال في فن القصة المكتوبة للطفل في مصر . وإذ كان بالإمكان تحديد حقبتها الزمنية المبكرة لكونها ظهرت في إطار صحافة الأطفال ، ولكن لا يمكننا ذكر اسماء لامعة أسهمت في تطوير صياغة القصة وحملها على النضج واتخاذ مكانة كبيرة في حركة الأدب العام في العراق آنذاك .

واذا أردنا تحديد الريادة كسبق زمني لا فني ، فإن قصة الطفل في العراق نشرت على صفحات مجلة التلميذ العراقي ، وكانت أول قصة لطالب مشتاق بعنوان ( حكاية ) ، في العدد الثاني الصادر في (16 تشرين الثاني 1922) ويعتقد الدكتور جعفر صادق أنها كتبت باسلوب التوليف( ).

ويمكن ان نعطي الريادة للقاص ( محمود احمد السيد ) الذي نشر في العدد الرابع من مجلة التلميذ العراقي قصة ( إبن الدّلال ) ، ( ولأنه أول من فكَّر ونشر قصصاً يوم لم تعرف بغداد معنى القصة ) ( ) . ولم يطلع أحد بالتأكيد على معنى القصة المكتوبة للصغار أو الناشئة .

( ولكن الريادة تقترن بوعي الرائد للظروف والملابسات التاريخية المحيطة بالطريق الذي اختطه لنفسه والذي لا يخلو من قدر من المغامرة والنفس الطويل والقدرة العالية على المواصلة ، فبغير هذه المواصلة الواعية تنكمش التجارب الريادية إلى مجرد تجارب عابرة وآنية ، تفتقر إلى الحس الجاد والتأثير الفاعل ) ( ).

وبذلك تكون الريادة جماعية في السعي إلى تجربة كتابة قصة الطفل وكانت مجلة التلميذ العراقي ، هي نقطة البداية لهذه التجربة وتلتها تجارب عديدة في صحف أخرى ، وأن هذه الريادة الجماعية هي التي أسهمت في تتويج الالتفات والتنبه إلى هذه التجربة ، بمواهب عملية كشف بعد أربعة عقود ، عن عدد كبير من الكتاب الذي صار همهم الأكبر ، تطوير هذه التجربة ، فضلاً عن مئات الإصدارات، الثرية والنافعة .

ونحن لا نتفق مع رأي الذين يحكمون بعدم الريادة لهذه التجربة ، بحجة أنها كانت محكومة ( بنزعة تعليمية وهدف مدرسي صريح ، مرتبط بواقع وحدود تجربة كانت وما تزال مبهمة النتائج ) على حد قولهم( ) .

ومن أهم الأسباب التي دعتنا إلى عدم إعطاء أسماء لامعة ، في الكتابة للطفل، وفي قصة الطفل بوجه خاص .

أولاً : عدم وجود وعي موضوعي بمتطلبات الطفولة من الأدب الخاص بهم .

ثانياً : إن اغلب الذين كتبوا قصصاً للأطفال لم يذكروا اسماؤهم مطلقاً وأكتفى بعضهم بتوقيع حروفها فقط ، ولا يقتصر ذلك على القصة وحدها إذ شمل المقالات العلمية والتاريخية معظمها ، ولم تذكر اسماء مؤلفيها إلا ما ندر( ) . لسبب واحد كونها تنشر في مجلة الأطفال .

وعلى ما يبدو فأن النظرة الشائعة حول ما يكتب للطفل وعنه من ادب وفن ، هي نظرة استصغار واستهانة اعتقاداً منهم ان هذا الفن لا يلجه إلا من قلت حيلته وعجز قلمه عن التعبير والصياغة ، وكان الاعتقاد نفسه سائداً في مصر في القرن التاسع عشر إذ نقرأ أن الاستاذ ( محمد عثمان جلال ) حين ترجم حكايات لا فونتين إلى العربية لم ينس ان يبرر إنجازه هذا بان يقول ( هذه المنظومات الشعرية التي هي على لسان الحيوان على نسق كتاب ( الصادح والباغم ) لابن الهبارية المتوفى سنة (509)هـ ( ) .

( وحين كتل شوقي أربعاً وخمسين قصة بعنوان ( حكايات ) في ديوان للأطفال ، نراه بعد مدة تتضاءل حماسته ويرجع ذلك لطبيعة المجتمع العربي آنذاك ، ونظرة الاستخفاف والاستهانة بأدب الاطفال لكون المجتمع مجتمع رجال ، يدور الفن والادب بفلكه لإرضائه دون اعتبار أو مكانة الطفل ) ( ) .

ثالثاً : إنَّ بدايات قصة الطفل في العراق ظلت مرهونة ببدايات قصة الكبار إذ كان ( محمود احمد السيد ) من أوائل الذين كتبوا في مجلة التلميذ العراقي .

ونخلص إلى القول انه حين صار هناك توجه نحو إصدار مجلة التلميذ في ( 9تشرين الثاني من عام 1922 ) كان الكتاب للتو قد تلمسوا الطريق في فن كتابة القصة ، وأن كتاباتهم كانت عبارة عن محاولات قصصية جديدة لم تنضج ولم تنسق بعد ، فقد كان لمحمود احمد السيد ، موقف المتحمس في الفن القصصي خلال الحقبة المبكرة من حياته الأدبية ، وتقع بين العامين (1921-1922) ( ) ، وحين نشر قصة (ابن الدلال) في مجلة التلميذ العراقي ، كانت تلك تجربته البدائية الأولى في كتابة قصة للطفل لكنه اخفق فيها إذ لم يستطع التخلص من الاسلوب الأدبي الذي خذ يكتبه للكبار في بداية نشأته القصصية ، ولم يكن هناك المام معرفي وأدبي بثقافة الطفل وطبيعة فن الكتابة له في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ العراق ، ومع ذلك تؤشر هذه التجربة مرحلة من مراحل فن كتابة القصة للطفل ، لأنها موجهة له بصديق نية ، واذا حكمنا على هذه التجربة مراعين المفاهيم السائدة وظروفها فإنها تعد تجربة مقوِّمة لفن قصة الصغار ، أما اذا حكمنا عليها بالمفهوم العصري الراهن لأدب الطفل فيكون حكمنا عندئذ مختلفاً . ويمكن عدّ رأي الدكتور جعفر صادق بهذا الخصوص في موضعه حين علق على قصة الطفل في مرحلتها الأولى قائلاً ( من غير السليم النظر إلى تلك النصوص بمعيار نقدي معاصر وإنما الضرورة تقتضي أن توضع في إطارها الزمني وفي ضوء الظروف الثقافية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة وقتها ) ( ) .

ومع أن رأي الدكتور جعفر صادق رأي صريح وواضح ولكنه استمال في حكمه على قصة الطفل في طورها الأول الوجهة العصرية في نقد القصة ، حيث أشار : ( وفي عام 1929 طلعت مجلة التلميذ العراقي التي يصدرها سعيد فهيم مرة أخرى باسم ( التلميذ ) وخلال عمرها القصير قياساً إلى ما عاشته شقيقتها (التلميذ العراقي) ظهرت المجلة على قرائها بعدد لا بأس به من المحاولات القصصية سواء ما كان نصاً قصصياً أو ما عُدَّ صورة قصصية ، وعلى الرغم من أننا لم نعثر في اعداد هذه المجلة على نص عراقي متكامل ) ( ) .

مع ان المجلة أطلعت علينا في عددها الأول بحكاية عراقية تأليفاً ومضموناً للسيد ( عزيز سامي ) . بعنوان ( الغذاء ) وهي من أجمل ما قرأنا من القصص التي وردت في اعداد المجلة منذ تأسيسها حتى انقطاعها ، وسنأتي إلى استعراض الحكاية في موضع آخر . وان عدم الإشارة إلى هذه الحكاية راجع الى انه عدَّها نصاً قصصياً عابراً لا يحمل مواصفات القصة للطفل ، وكأنه لم يضع القصة في إطارها الزمني وحكم عليها بمعيار نقدي معاصر .

وربما رسخ رأيه للسبب ذاته بخصوص بداية انطلاق تجربة كتابة قصة الطفل مع بداية السبعينيات حين ذكر معلقاً :

( لقد استطاعت قصة الأطفال في العراق ومن خلال نتاجات كتابها الذين بدأوا التجربة في مدة انطلاقها التي بدأت مع بداية السبعينيات من هذا القرن أن تنبت وتنمو ثم ترسخت واتضحت بعض ملامحها وسماتها الخاصة ) ( ) .

أما احلام الخالدي فذكرت في رسالتها عن قصة الطفل في العراق ( أنها لم تعثر على قصص للأطفال تستحق ان يطلق عليها اسم قصة بالمعنى الكامل وتقول ؛ لكننا سنتحدث عن طبيعة تناول الصحف للقصص المكتوبة لمعرفة تطور القصة كنمط أدبي أو كعنصر من عناصر أدب الأطفال ) ( ).

وعلى ما يبدو ان كل من يدرس قصة الطفل في العراق في مرحلتها الأولى ، يبتعد قليلاً عن الموضوعية ولا ينعم النظر في واقع فن القصة بشكل عام في تلك الحقبة الزمنية ، إذ كان يعد نمطاً أدبياً حديثاً ركن إلى ساحة الأدب في بداية العشرينيات أي مع انطلاق تجربة صحافة الطفل في العراق ، وما نشر فيها من قصة يعد فناً حديثاً ايضاً ، لأنها لم تقوَّم ولم يشتد عودها بعد .

أما الدكتورة ( خولة احمد النوري ) فقد خلصت إلى القول ( ان الاسلوب والألوان الصحيفة والادبية في صحافة الأطفال في مدتها التمهيدية تتميز بما يأتي :

1- إنَّ ادب الأطفال لم يظهر في هذه الحقبة ، بل ظهر أدب الكبار ، وأن أدب الأطفال يختلف عن أدب الكبار . وعدَّت الحقبة التمهيدية منذ عام (1922 حتى عام 1969) وهو تاريخ بدء ظهور صحافة الأطفال الرسمية بصورة منتظمة عام 1969) ( ).

وبما ان أول ظهور لقصص الأطفال كان في اطار صحافة الأطفال فذلك يعني أن الباحثة عدَّت كل ما كان يقدم للتلاميذ من الأطفال في تلك المرحلة ليس بمستوى ومفهوم أدب الأطفال في العصر الحديث ، ولم يأتِ مطابقاً له ، وبذلك عدَّت التجربة التي بدأها رجال أفاضل جمعتهم المسؤولية والنية الصادقة في توجيه كلمة أدبية للطفل من خلال تجربة الصحافة بلا جدوى ، لأن ما قدمته كان غير مناسب لأدب الصغار .

ولا نجزم القول أن هناك قصة واضحة المعالم في فكرتها ولغتها ، وفي مقدمتها وحبكتها ، ولكن يمكن الجزم ان تباشير الفن القصصي للأطفال قد بدأت في تلك الحقبة ، وللأسف ان بدايات القصة في العراق لم تتأثر كثيراً ببدايات قصة الطفل في مصر ، لأن مسيرة تسجيل أدب الطفل ما زالت في نشأتها الأولى ، وهي بذرة تبرعمت في مصر ولم تصل ثمارها بعد إلى باقي الأقطار العربية الأولى للظروف السياسية السيئة التي يعاني منها الوطن العربي بأكمله آنذاك وكانت عقبة مهمة تعيق انتقال الأدب والثقافة بين الأقطار العربية . وان الحقبة الحقيقية لظهور أدب الأطفال في مصر والمتمثل بقصائد الشعراء ، وقصص كامل كيلاني ، ومحمد سعيد العريان ، ومحمد عطية الابراشي ، بوجه خاص كانت في العشرينيات أي في المدة الزمنية نفسها التي ظهرت فيها صحافة الطفل في العراق ، إذ لم يكن التأثير مباشراً وسريعاً بل أخذ مرحلة زمنية ليست بالقصيرة ، لتأخر حركة الطباعة والإعلام في الوطن العربي .

( إذ لم يدخل أطفالنا عالم الأدب المكتوب إلا في العشرينيات من هذا القرن ومع ذلك لم يدخله إلا قلة من القادرين منهم على شراء كتب الثقافة والتسلية ) ( ).

بما ان التجربة الشعرية للطفل قد عرفت مبكرة في الوطن العربي لأن ( أدب الأطفال في الوطن العربي بدأ شعراً ) ( ) فقد ظهر تأثيرها في الحكايات الشعرية للأطفال مبكراً في العراق أيضاً . ولأن الشعر من الألوان الأدبية المهمة التي تمثل فيها تاريخ الأدب العربي ، وكان التأثر بالتجربة الشعرية سريعاً وتقليد التجربة ملحاً( ) ، أما الفن القصصي الحديث فأنه فن جديد ، على الأدب العربي ، لذا كان التأثر به والتأليف على نهجه بطيئاً ومتعثراً .

وبعد اطلاعنا على ما كان ينشر في مجلة التلميذ العراقي منذ العدد الأول الصادر في ( 9تشرين الثاني 1922) حتى العدد الثلاثين الصادر في ( 31 مايس 1923 ) ، وجدنا ان هذه المجلة كانت أشبه ( بحاضنة أدبية ) هيأت ظروفاً صحية لاستيعاب الفن الأدبي الجديد ، واعني فن القصة بالنسبة للطلبة الصغار . ومن خلال توفير النماذج العلمية والتاريخية والادبية على هيأة قصص أو مقالات مقدمة باسلوب قصصي فأن بعضاً من هذه المقالات سنأتي على دراستها ونقلها من مصطلح المقالات إلى مصطلح ( القصة المقالية للناشئة ) فهي تتمتع بصفات القصة من ناحية العرض والحوار والفكرة والحبكة واسلوبها الأدبي الشيق ، سوى ان مضمونها يكون في بعض المقالات علمياً أو تاريخياً .

وإن النماذج الأدبية ذات المسحة القصصية التي وجدت في مجلة التلميذ العراقي يمكن بيانها وكما يأتي :

1- قصص ( تأليف عراقي ) .

2- قصص ( معربة ) .

3- قصص مقالية قريبة جداً في معظم نماذجها إلى قصة الناشئة .

4- قصص الكشافة .

5- مناظرات علمية قصصية ذات اسلوب قصصي مشوق جداً .

6- محاورات أدبية قريبة من اسلوب مفهوم القصة .

7- حكايات شعرية .

8- قصص تراث .

9- صور قصصية .

وبذلك تكون الحصيلة النهائية :

اربع صور قصصية لكتاب عراقيين . ثلاث منها لروفائيل بطي / وصورة قصة واحدة للكاتب محمود احمد السيد .

ست قصص معربة .

اربع قصص من التراث .